المصابة العاشرة !

بقلم هاني الراهب

ليس يدري احد لماذا سمي « مقهى ومسبح فينيسيا ». وساعة الضحى التي جاءه به شابان فجلسا ، بين الكثيرين من الجالسين ، الى طاولة بحذاء البحر ، كانت حارة بحيث تتقارب الجفون فيما بينها لتتخذ شكلا تامليا ظاهرا .

اشعل تيسير سيجارة وقال : « موجات هذا البحر ، من طرفه الاول الى طرفه الاخير ، تشبه عالم همنجواي الرحيب ، انها مخاضة شاسعة عميقة ، فيها شيء كبير ملحوظ : ان تتالي الموج لاينقطع سواء على الصخر الصلب الصامد كالحياة نفسها ، ام فوق الرمل اللامتأثر المذرى، كالموت نفسه ، انها لاتنقطع عن الضرب والتقلب ، وشمسها تشرق ايضا ، بالرغم من ان ملاحها عنين ، علاقته بالحياة محض عقم وتفرج ، وان من احبته كانت تتمسك به ، تمسك الحالم بالمستحيل ، الذي لايستطيع الا ان يتجاوز اللاعنينين لانهم اشد عمقا .. وهو بعد ليس مسؤولا عن عجزه ؟ انها الحرب ، هو يستطيع ان يثبت غيابه ساعة وقوع الجريمة ، لكن الحياة ليست قاضيا ، انها قدر ، لقد اجبرت على السجن الابدي والانفصال الدائم ... غير ان همنجواي يبتسم ، ويقول لنا ان الشمس تشرق ايضا ـ صدق اولا تصدق ـ ، وان الموج يتتالى ليثبت ان به طاقة ، ان في اعماقه شيئا غير الزبد واللون الازرق ، ان جرثومة دفق وجيشان تنتظر من يعري عنها الصخور والركامات لتتوالد . »

وتعالت فجأة موجة ضخمة ، وارتطمت بالشاطيء لتنسفح الى الامام فتحيط باقدام الطاولة .

قال فؤاد « هذا يعني عريا تاما .. يعني ان ينفض زبد الحضارة والتاريخ عن وعي الجنس البشري كي يأتلق حسه الباطني بمعان تأتيه للمرة الاولى من داخل » ويبدو لي ان هذه الفكرة ، هذا الايمان بالطاقة الخبيئة في النفس ، مطت شفتي همنجواي بابتسامة فقال « الشمس تشرق ايضا » على الاقل لكي لا ننتحر . هكذا برغم العقم ، لقد رأى ، بطريقة ما ، ان الحياة تسأله ماذا تريد فقرر .. »

جاء النادل باسما ، وضع يديه على الطاولة ، قال :

« ماذا يريد الشباب ؟ »

والتقت عينا تيسير بعيني فؤاد ، سألتاهما ، وبدا المطلب محرجا للوهلة الاولى ، لكن تيسير قال :

« بيرة » وقال فؤاد :

« قهوة مرة »

وطأطأ النادل راسه ايجابا ، رفع حاجبه الايسر ، ثم انصرف بلباقة ، قال فؤاد :

« يمكننا ان نعتبر كامو تعرويا .. لقد تعرى وعرى معه الحياة ، بل يلوح لي انه فضح الحياة اكثر مما فضح انسانيته ، وقف امامها بعقله اللا متأقلم وقفة مرعوب مذعور ، واعلن سخطه ، ولما رفضت خلاياه ان تنتحر ، حاول بمجرد عقله ان يبرر بقاءه على الارض ، وهذا عري ذهني محض . »

قال تيسير وهو يتأمل البحر الفسيح :

« اما همنجواي فقد طرح نفسه على العالم .. كان يبحث ابدا عن تفاعل يحدث بينه وبين الكون ، فيعطيه معنى ، ويثبت ان ثمة رابطة »

والتفت فرأى النادل يقف قربه بهدوء ، ويمد يده للزجاجة فتفهق ثم يسيل منها الى كأس طويلة ، عصير مخمر اصفر راح يزبد ويتعالى ؟ وتمتد اليد الاخرى فتضع امام فؤاد فنجانا ابيض الجدار مليئا بالقهوة .

رشف تيسير من كأسه ، « آح » قال ، وتأمل البحر المزبد : « لقد احب ابطاله الحياة ، كانوا لابيتيين ، لانهم رفضوا استقرار الروتين وتجاوزوا ، وكانوا ، مثله ،يعانون من حساسيتهم الهائلة ، ومن اصاباتهم الجسمية والنفسية، ويفتحون للدنيا عين المحبة والاشفاق ، وكانوا جميعايلعنون الحرب . لقد انكشفت لديهم لعبة المثل الاعلى الذي ماتت لاجله الملايين دون فائدة ، واستيقظت ضمائرهم على فجيعتها فودعوا الحرب والسلاح ، لقد اصيب همنجواي في حياته تسع اصابات مميتة ، وكذلك حدث لابطاله ، ولم يكن هذا عبثا .. »

فيما نهل فؤاد بعض فنجانه ، تناول تيسير بقية كأسه وقال :

« ولم يكن هذا عبثا .. كانوا يحسون بنشوة الاصطراع وبصخب ميتافيزيكي يطن في اعماقهم ، بقوة دافعة دافقة، شيء خبيء يحاول ان يظهر فيصطدم بقوة معاكسة راغمة تحيل انتصارهم هزيمة..وظلوا مع ذلك يبتسمون ويتخذون موقفا ، جباههم بقيت تعرق بالكبر ، تنضح كبرا ، قلوبهم ظلت تحس بعمق الرابطة بين البشر ، بين الفرد والحياة ، هذا الكبر ! انه عزاؤنا »

وحسا تيسير من كأسه الثانية ، وتمطى ، ومد فؤاد يده فوق المنضدة ، وقال :

« كان بهم بعض من همنجواي العظيم ! محبته ، عاشوا برغم الرصاص الذي اخترم صدورهم عن قصد وعمد . ولقد اعطتهم هذه الحياة الثانية حس النشوة والكبر ، وشعورا بالرضى ــ رغم هزيمتهم ــ وبزمالة ميتافيزيكية للحياة . بل ان « الشيخ » حقق انتصارا ، اثبت ان الانسان قد يسحق لكنه لايقهر ، وهو يمثل منعطفا ايجابيا هائلا عند همنجواي ، التقى مع الامنية الحالمة الاولى بان الشمس تشرق ايضا ، بعد ان قدم لنا من قبل ابطالا مدحوريـن لايملكون غير ابتسامة وكبره ، انه استطاع ان يعود وقد خفت حدة عروقه ، وتلك نتيجة عطاء . لكن العطاء عنـد همنجواي يطرح فورا مسلحة يحتاج الايمـان بهـا ــ عند متعر مثل كامو ــ لتذليل صعوبة عقلية ، انها تقول ان ثمة شيئا يعطى ، ولقد اقتنع الشيخ بسبب من ذلك بانه حقق انتصارا ، انه اعطى للانسان والحياة قيمة ، فاذا كان عطـاء العطاء ذلك الشعور بالرضى وبالزمالة الميتافيزيكية للاشياء وباعتدال التوتر النفسي ، فماذا بقي كي يثور الفكر بسببه؟ ان ثورة لاتتحدد طبعا ــ من حيث معناها ومطلبها ــ بهذه العناصر السابقة ، لكنها تنبع عن فقدانها ورفضها . »

ورشف فؤاد من فنجانه ، اشعل سيجارة ، ونقر برجله على الارض .

قال تيسير : « ابطال همنجواي لم يكونوا ثائرين ، كانوا يبحثون عن معنى ، عن ان وجودهم ليس صدفة ، وتلمح هذا الاتجاه في الادب الاميركي ، منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما اصدر هيرمان ملفيل ملحمته « موبي ديك » وجعل ختامها انتصارا فاجعا حققه « آخاب » على قوى الطبيعة ، فاكد بطريقته الخاصة ، انه لم يوجد صدفة ، وان لوجوده معنى ، ويلتقي همنجواي مع كامو فـي مبدأ البحث هذا . غير ان همنجواي حقق مطلب كاموا الـذي قال ــ ولم يستطيع ان يفعل ــ « آه يانفسي .. لا تطلبي المستحيل ، بل استنفدي حدود الممكن . » وحين انطلق وراء ممكنه اكتشف ان قدرة المستحيل تكمن في اعماقه ، وكان عليه ان يتعرى دائما امام الطبيعة ليكشف عن هذا الكنـز الخبيء ، الكنز الذي بعض ملامحه الكبر ، والنشوة والانتصار ان الفكر الاصيل لايقبله الرفض الهارب في سبيل الابقاء على نفسه ، اما نعم التجربة وسعيرها فضروريان كي يعطيا للفكر ملح ارضه ، الذي هو الصدق ، والمواد الكيميائيـة اللازمة لانتاج مركب حضاري جديد ؟ والا لكان الامر مثـل من يطبخ روحه .

قال فؤاد : « لقد عرى كامو الحياة » .

قال تيسير : « لقد عرى همنجواي الانسان » .

قال فؤاد : « اذن فهما متكاملان ؟ لكنهما وصلا لنتائج متباينة » .

رشف تيسير بقية كأسه ، ضرب بقبضتيه على صدره، نفخ فمه :

« أوصالي .. انها تحس بنشوة همنجوائية .. تعـال نسبـح » .

واتجها نحو مقصورة لرمي الثياب .

قال فؤاد : « قد يكون رفض ماأسميته بالعناصر هـذه عملا لا انسانيا ، لكنه ضروري ، كما ان الفكر الذي يرفض انساني هو الاخر ... أعتقد أنا وقعنا في حيص بيص » ..

قال تيسير ، وهما يتجهان للبحر : « سوف احضر لـك سمكة ، او شيئا اخر . »

وابتسم فؤاد : « سوف اسبح اكثر مما استطيع ، لقد سئمت المسافات القصيرة . »

وولجا البحر .

بعد قليل جاء النادل فجمع اشياء الطاولة ، ثم وقف، وانطرحت منه نظرة خوف ، وتأمل الراية السوداء ، ثـم التفت حوله باحثا . وأشار بيده للمراقب ، وسار اليه ، واذ التقى به سأله :

« هل نزلا للبحر ؟ الراية السوداء مرفوعة ! وفيه تيار داخلي يجذب السباحين بعيدا باستمرار !! »

تطلع الرجلان ببعضهما ، ثم اسرعا بلا كلام الى فلـك بخاري قريب ، وانطلقا به في عرض البحر ، ولم يغب عنهما وهما يتأملان الموج المزبد، الاعين اللامبالية التي لحقت بهما.

بعد هنيهات اشار النادل لزميله ، فأوقف المحرك ، وعادا بالفلك الى يمين الوراء .

« دم » وتأملا بعضهما بسكون ، ثم التفتا للون احمر يصبغ طوليا ، بقعة صغيرة من البحر ويضيع مع العمق، قال النادل : « مات ؟ » فهز المراقب كتفيه ببطء ، وقال : « كلاب البحر ؟ هل تصل هنا ؟ » . ووقفا يحملقان بالبقعة الصغيرة تتلوى وتعلو فتنخفض مع الموج ، والراية السوداء ماتزال تخفق يعنف فوق المياه .

فجأة انشق الموج وراء البقعة عن راس مبعثر الشعر، تهرهر قليلا لينفض عنه الماء ، ثم اطلق زفيرا مضغوطا ،

المجموعة السيكولوجية

تعالج مشاكل الحياة النفسية على ضوء العلم

صدر منها				ق.ل
تغلب على الخجل	ترجمة : عبد	اللطيف	شراره	١٠٠
سيطر على نفسك	«	«	«	١٠٠
تغلب على التشاؤم	«	«	«	١٠٠
سلطان الارادة	«	«	«	١٠٠
مفتاح الحظ	«	«	«	١٠٠
سحر الشخصية	«	«	«	١٠٠
كيف تكسب المال	«	لويس الحاج		١٠٠
تغلب على القلق	«	«		١٠٠
الايحاء الذاتي	«	بهيج شعبان		١٠٠
تغلب على الخوف	«	لويس الحاج		١٠٠
التنويم المغناطيسي	«	بهيج شعبان		٢٥٠
سعادتك بيدك	«	«		١٥٠
طريق النجاح	«	«		١٥٠

الناشر : دار بيروت

وصاح :

« امسكا هذه الصدفة .. ولا توقعاها . » وسبح نحو الفلك : « رأيتم فؤاد ؟ »

اشار النادل نفيا ، صعد تيسير ، وفي قمرة صغيرة انطرح مبهور الانفاس ، واتجه الفلك للامام مسرعا .

بعد قليل رأى الرجلان يدا ترتفع بلهفة بين الامواج المتخبطة وتهوي ، ثم صاحبها يتجه نحوهما ، تحولت الدفة اليه ، واذ التقيا امسك ببطن الفلك لاهثا ، وبجهد قليل رفعه الرجلان الى القمرة ، حيث استلقى هو الاخر بجانب تيسير .

مضت برهات ولم ينأم صوت الا هشهشة الامواج،الفلك يتجه للشاطيء بسرعة والرجال صامتون ، ويد تتحسس صدفة بحجم كرة التنس ، وجسم يستلقي منهكا وبلا مطلب .

قبيل الشاطيء همس تيسير باقتناع : « اعتقد انها فارغة » وابتسم .

فيما غمغم فؤاد بشرود : « لم استطع اكثر مما استطيع» وابتسم ايضا .

ثم صمتا حتى وصلا للشاطيء ، فاستلقيا تحت مظلة على الرمل .

حرك تيسير راسه نحو فؤاد وتأمله قليلا . وعاد ينظر الى قبة المظلة الزاهية ، ثم قال :

« يسبح اكثر مما يستطيع !! انك مرعب . »

غمغم فؤاد : « اما انت فعدت بصدفة فارغة ، وبابتسامة هل احسست بالغبطة الروحية ؟ عشت حياة ثانية ؟ »

وصمت قليلا ثم استأنف : « اني ازداد اقتناعا بانهما متكاملان : الرعب والابتسام ، انهما القطبان اللذان يتجاذبان صبوات الانسان وفكراته منذ الازل ، وهو بينهما مشطور الشخصية .. اتراه واجدا دربا موفقا في التعري ؟ ولكن ماذا بشأن الاصابة العاشرة ؟ أليتة نفسها التي ماتها كامو : رصاصة طائشة ، حادثة اصطدام ، لغم ديناميت في البحر، صوت .. ان رعب كامو يعود ليلغي ابتسامة همنجواي بقسوة والى الابد .. « الاصابة العاشرة » كانت ختام اعمال همنجواي الادبية ، انها التجربة الوحيدة التي لم يكتبها ، والتي عاناها بلا انتصار .. يخيل الي في هذه الاونة انه بدلا من كونه مصدر عزاء صار مدرا للدموع .. موته الفاجع ازال المسند الخفي اللامنظور الذي خلقه طيلة اثنين وستين عاما بابتسامه الدائم وبحثه الذي خلفه طيلة عن قيمة الانسان ومعناه .. وكان كثير الاحتمال ان ماخلقه سوف يجعلنا نبتسم نحن الاخرين ، ولقد ابتسمنا فعلا ، اخذنا الكبر ، ولكن ماذا لو انه مات بواحدة من الاصابات التسع التي مزقت حتى أضلاعه ؟ ماذا لو ان موته حدث بأية وسيلة الا هذه الصدفة اللعينة ؟ اكان قدرا ان تزول البسمة ، ونواجه ثانية اليقين المر بان هناك تسلطا فراغيا غيبيا رهيبا يقتلنا برصاصه طائشة ؟ »

وران صمت قصير . مازال البحر يتلاطم ، قال تيسير :

« اذا كان العري هو الحل فليأت كل الناس الى المسبح، سنعوم فوق الماء طربا ، برغم الراية السوداء ، وقد نتجاوز حدودنا كما فعل شيخ همنجواي ، ونعود بصدفة فارغة، بهيكل سمكة عظمي ، او قبضة رمل من القاع ، ونبتسم ، سنقول اننا خضنا عمقا ومدى معركة اثبات وجود ، وان بوسعنا ان ننتصر ولدينا الشاهد !.. ان الاشياء ليست هكذا .. ليست مداعبات غرور ... انها سر البسمة وسر الرعب ، الجرثومة الداخلية التي ازاح همنجواي بعض الستور عن وجودها وكشف كامو عن الكثير من مطلبها . لقد تم وجود الانسان بعد تطور عضوي وطفرات ، وهكذا فثمة شيء مكنون في هذه الخلايا ، شيء فطري اصيل ، يبتسم ويطلب المحال .. ولكي نكشف عنه تماما يجب ان نسبح وندعو الناس للسباحة ، مغمضي الاعين كي لايسهينا العالم الخارجي عن استبطان داخلنا ، عن معرفة اسباب وسر التناقض واستوائه للصحيح ، وستبقى الرصاصات جاهزة دائما لان تطيش وتثز مالم نفعل ذلك ، لقد صمت همنجواي ثماني سنوات بعد انتصار شيخه فلم يعطنا شيئا اروع ، لقد كان يشعر بضرورة المزيد من التعري كي يعود بسمكة كاملة اللحم .. ولكن تبا للاصابة العاشرة ! »

وصمت تيسير ، وزاح الاثنان يتأملان قبة المظلة الزاهية بعد حين التفتا للنادل يقول :

« هل يريد الشباب شيئا ؟ »

وهتفا معا : « اجل ، يجب ان نتمضمض لنزيل طعم البحر من فمينا ، ونبتلع لعابنا الحقيقي . »

وفيما ينطلقان نحو السحساح ليزيلا ماء البحر ، قال فؤاد :

« ايها العزاء الذي مات .. كنت اشعر دائما انك أبي وأبو الاخرين . »

وردد تيسير : « كنت اتمنى دائما ان اقول له وانا اصافحه : « ياعزيزي ارنست آني احبك . »

اللاذقية — هاني الراهب

أعطنا حبا

الديوان الاخير للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

الثمن ٣٠٠ ق.ل

صدر اخيرا عن

دار الآداب